الفصل الأول

وظيفة التعبير اللغوي وتطورها

التعبير اللغوي أسمى أنواع التعبير ، وأوضحها في الدلالة على المراد ، وأيسرها على المعبِّرين ، وهو الأصل في الإبانة والكشف ، وبه تتفاوت الدلالات في القوة والضعف ، والغموض والوضوح ، وبه تظهر الميزة بين قول وقول ، ومعنى ومعنى ، وهو أقدرها على تصوير المعاني الدقيقة ونقلها إلى السامعين .. وهو الذي يميِّز الإنسان بأسلوبه الراقي مما سواه من كائنات لها القُدرة على أن تطلق أصواتًا .

ومن هنا ساغ للمناطقة أن يعرِّفوا الإنسان بأنه حيوان ناطق ، ويريدون بالنطق التفكير وهو لا يكون إلا بوساطة عبارات تكونه وتظهره ، وقد فرَّق المشتغلون بالدراسات اللغوية بين التعبير عند الإنسان والتعبير عند الحيوان ، بأنَّ اللغة عند الإنسان ذات مقاطع صالحة للدخول في تراكيب تدل دلالة واضحة على معان كلية ، أما لغة الحيوان فهي لغة انفعالية غرزية تتكون من أصوات طولية مصحوبة بحركات تدل على معان مبهمة لا تتضح إلا بالتكرار وهي غير صالحة للدخول في تراكيب تدل على معان كلية واضحة .

فالتعبير الواضح الجميل خاصة من خصائص الإنسان الراقي ، ولعل الآية الكريمة : ﴿ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾ (الرحمن:٤) تدل على هذا المعنى .

وقد عرف المجتمع البَشري ـ منذ بداوته ـ التعبير اللغوي ، لأنَّ الإفصاح عما يجول في نفسه من معان وخيالات ضرورة من ضرورات حياته الجَماعية، وللعلماء ـ قديمًا وحديثًا ـ بحوث ونظريات حول «نشأة اللغة الإنسانية» والمراحل التي مرَّت بها حتى وصلت إلى مرحلة الكمال أو قربت منها .

- الآراء حول نشأة اللغة :

ويمكن إيجاز تلك البحوث في أربعة اتجاهات :

الاتجاه الأول : مؤداه أن الفضل في نشأة اللغة الإنسانية يرجع إلى إلهام إلهي هبط على الإنسان وعلّمه النطق وأسماء الأشياء ، ومن أنصار هذا الاتجاه في العصور القديمة الفيلسوف اليوناني « هيراكليت» ، وأحمد بن فارس في كتابه « الصاحبي»[1] وابن جني في « الخصائص»[2] . . وفي العصور الحديثة طائفة من المستشرقين على رأسها الأب لامي في كتابه « فن الكلام» والفيلسوف « دبونالد» في كتابه « التشريع القديم»[3] وليس لهؤلاء دليل قوي يمكن الاعتداد به .

الاتجاه الثاني : وفحواه أن اللغة ابتدعت بالمواضعة والارتجال وقد ذهب إلى هذا الرأي الفيلسوف اليوناني القديم « ديموكريت» و« آدم سميث» الفيلسوف الإنجليزي[4] وآخرون ، وليس لهذا الاتجاه سند عقلي أو نقلي يمكن الاعتماد عليه .

وقد نُقِد بأنَّ المواضعة لا تتم إلا عن طريق عُرف لغوي سابق عليها ، وهذا يلزم عليه الدور ـ كما يقولون ـ لأنَّ المواضعة تحتاج إلى مواضعة يتم بها الوضع.

الاتجاه الثالث : وترجع فيه اللغة إلى غريزة خاصة زُوِّدَ الإنسان بها منذ القِدَم ، وهذه الغريزة كانت تحمل كل فرد من بني الإنسان على التعبير عن كل مدرَك حسي أو معنوي بكلمة خاصة ، وكانت عند جميع الأفراد[5] متحدة في

---

(١) انظر : الصاحبي ـ لأحمد بن فارس ص ٥ ، ٧.

(٢) انظر : الخصائص ـ لابن جني ١/٤٥ .

(٣،٤) علم اللغة ـ للدكتور علي عبد الواحد وافي ص ٨٩ ، والفلسفة اللغوية لجورجي زيدان ص١٢٩.

(٥) منهم ابن سنان الخفاجي : سر الفصاحة ص ٤٠ .

طبيعتها ووظائفها وما يصدر عنها ، لذلك اتحدت المفردات أو تشابهت في طرق التعبير ، ولكن تطاول العصور أثَّر على تلك الغريزة فتلاشت !؟

ومن القائلين بهذا الاتجاه العلامة «ماكس مولر» الألماني[1]. وقد بنى هؤلاء رأيهم على أدلة مستمدة من دراسة أصول الكلمات في اللغات الهندية الأوربية ، فقد تبيَّن لهم أنَّ مفردات تلك اللغات ترجع إلى خمسمائة أصل مشترك ، وأنَّ هذه الأصول تمثل اللغة الأم التي تشعبت عنها اللغة ، فهي لذلك تمثل اللغة الإنسانية في أقدم عصورها !!؟

وعلى طرافة هذا الاتجاه ، ودعمه بالدراسات الحية ، فإنه فاسد من وجوه :

١- أنه لا يحل المشكلة حتى يضع مكانها مشكلة أخرى هي افتراض الغريزة الكلامية .

٢- وأنَّ ما يقرره من قبيل تفسير الشيء بنفسه .

٣- أنه لا يعالج جوهر المشكلة ، لأنَّ المهم هو معرفة أول مظهر لاستغلال هذه القدرة والانتفاع بها في تكوين الكلام الإنساني ، والأسلوب الذي احتذاه الإنسان في وضع أصوات معيَّنة لمسميات خاصة ، والكشف عن العوامل التي وجَّهته إلى هذا الأسلوب .

٤- وأكبر خطأ وقع فيه هذا الاتجاه أنَّ الأصول المذكورة التي اعتمدوا عليها في الاستنتاج تدل على معان كلية ـ كما قالوا ـ والمعاني الكلية تحتاج إلى درجة عقلية راقية لم يجرؤ باحث منصف على إثباتها للإنسان في عصور بداوته.. فكيف يصح جعل هذه اللغة «الهندية ـ الأوربية» اللغة الأم للغات الإنسانية ؟

الاتجاه الرابع : وخلاصته أنَّ أصل اللغة نشأ من محاكاة الإنسان لأصوات الطبيعة (التعبير الطبيعي عن الانفعالات : أصوات الحيوان ، أصوات مظاهر الطبيعة التي تحدث عن الأفعال الطبيعية كالشرب والقطع والكسر) وسارت في

---

(١) علم اللغة للدكتور علي عبد الواحد وافي ص ٩٢ .

سبيل الرقي تبعًا لارتقاء العقل وازدهار الحضارة ، وممن قال به من العلماء العرب ابن جني في الخصائص[1].

وقد رجَّح المحدَثون[2] هذا الاتجاه لاتساقه مع طبيعة التطور ودعموه بأنَّ لغة الطفل تتفق في مراحل تكوينها وتطورها مع ما تقرره هذه النظرية من مراحل تكوين وتطور اللغة الإنسانية في الدهور السحيقة ، كما دعموه بأنَّ ما يقرره يتفق مع ما عُرِف من خصائص اللغات في الأمم البدائية .

لهذا رجَّح المحدَثون هذا الرأي .

- أنواع التعبير اللغوي :

التعبير اللغوي نوعان . . **الأول** : تعبير لغوي طبيعي انفعالي بحت ، ويشمل جميع الأصوات الفطرية ـ مقصودة أو غير مقصودة ـ التي تصحب مختلف الانفعالات السارة والمحزنة ، كالضحك والبكاء والصراخ والأنين والتأوه ، وهذا النوع يتألف ـ في الغالب ـ من أصوات مبهمة تشبه أصوات الطبيعة وأصوات العجموات ، مختلطة ـ أحيانًا ـ بأصوات ذات مقاطع ـ حروف ساكنة ـ كالأنين والتأوه وأصوات لين (حروف مد) كالصراخ ـ ومن مميزات هذا النوع اتحاده عند جميع الناس لا فَرق بين جنس وجنس ، ولا بيئة وبيئة ، وخلوه من الوضع .

والثاني : هو التعبير الوضعي الإرادي .. ويشمل جميع الألفاظ الإرادية التي يلجأ إليها الإنسان للتعبير عن المعاني التي تجول في نفسه لينقلها إلى الآخرين . .

ويقصدون بهذا النوع : الأصول المركبة ذات المقاطع التي تتألف منها الكلمات وإليه تنصرف اللغة عند الإطلاق . . وهو أسمى مظاهر التعبير اللغوي.

---

(١) الخصائص لابن جني : ١/٤٤ ، ٤٥ .

(٢) منهم العلامة «وتنى» الإنجليزي ـ انظر : علم اللغة للدكتور علي عبد الواحد وافي ص٢٦٠ .

وخصائصه كالآتي :

١- أنه مكتسب لا فطري . ٢- أنه إرادي لا آلي .

٣- أنه يتمثل في أصوات مركبة تتألف منها كلمات وجمل (أسلوب) لا في أصوات .

٤- أنه يُعبِّر عن معان تجول في النفس لا عن انفعالات مبهمة .

٥- أنه يختلف باختلاف الأجناس والبيئات ، ويحتاج إلى وضع واضع .

٦- أنه وسيلة سهلة ميَّسرة للتخاطب ونقل الأفكار ولا يتوقف الانتفاع به على وسيلة سوى السمع[1].

- تطور التعبير اللغوي :

رأينا اختلاف العلماء حول نشأة اللغة الإنسانية ، والبواعث التي حملت الإنسان الأول على التعبير والكيفية التي بدأ بها تعبيره ، وتلك مشكلة ما زالت قابلة للبحث والدراسة ، ثم هناك مشكلة أخرى متفرعة عنها ، وهي : ما هي المراحل التي اجتازها التعبير اللغوي حتى أصبح لغة متكاملة اتخذها الإنسان وسيلة للتخاطب ونقل الأفكار بين أفراد المجتمع . . ويمكن حصر هذه المراحل فيما يأتي :

المرحلة الأولى : مرحلة الصراخ ، وفي هذه المرحلة لم يكن في أصوات اللغة الإنسانية أصوات مد (لين) ولا أصوات ساكنة ، بل كانت مؤلَّفة من أصوات مبهمة كدوي الريح وخرير الماء ، وحفيف الأوراق .

المرحلة الثانية : مرحلة المد ، وفي هذه المرحلة ظهرت أصوات المد في اللغة الإنسانية وتخلصت من الأصوات المبهمة .

المرحلة الثالثة : وفي هذه المرحلة ظهرت الأصوات الساكنة في اللغة مثل الباء، والتاء ، والثاء .... وهكذا .

---

(١) بخلاف الإشارة فلابد من وضوحها فهي مقيَّدة بظروف معيَّنة .

ويعتمد الباحثون في تقرير هذه النظرية على ما هو مشاهدٌ من لغة الطفل في مراحل نموها المختلفة ، وهذا التقسيم من حيث تطور الصوت اللغوي نفسه ، أما من حيث دلالته على معناه فلهم فيه مذهبان :

المذهب الأول : وعلى رأس القائلين به « ماكس مولر » ، مؤداه أنَّ الألفاظ بدأت دالة على معان كلية ثم تفرعت عنها المعاني الجزئية ، ودليلهم عليه ما سبق ذكره من الدراسة التي قاموا بها حول اللغات « الهندية ـ الأوربية » ، وقد سبق هناك أنَّ هذه النظرية غير مسلَّمة ، فكذلك ما أثبت ـ هنا ـ اعتمادًا على صحتها .

المذهب الثاني : مؤداه أنَّ المعاني الجزئية سابقة على المعاني الكلية ، لأنها ـ أي المعاني الكلية ـ مرحلة أرقى من تلك ، لذلك فإنَّ النفس ترتاح لهذا الرأي .. ويمكن الاعتماد فيه على تطور الدلالة في لغة الطفل .. كما أنَّ المعاني الحسية سابقة على المعاني الذهنية ، والمعاني الحقيقية سابقة على المعاني المجازية .. لأنَّ كلاً من المعاني الكلية والذهنية والمجازية تتطلب رقيًّا فكريًّا لم تتوافر أسبابه لدى الإنسان الأول .

وفريق آخر من الباحثين يقولون ـ اعتمادًا على نظرية تُعرف بنظرية العلاَّمة ريبو ـ : إنَّ أول ما نشأ من اللغة الصفات ، ثم أسماء المعاني ، ثم أسماء الذوات ، ثم ظهرت الأفعال واختتمت مراحل رقيها بظهور الحروف [1].

- اللغة ـ إذن ـ ما هي ؟

أنَّ أشهر تعريف للغة شاع في العصور الوسطى ـ وما زال العلماء يرددونه حتى الآن ـ هو أن اللغة : أصوات يُعبِّر بها كل قوم عن أغراضهم[2]، وفي العصور القديمة تحدث « أرسطو » عن ماهية اللغة ووظيفتها وهي عنده وظيفة

---

(١) استقينا معظم هذه المعلومات من كتاب « علم اللغة » للدكتور علي عبد الواحد وافي والفلسفة اللغوية لجرجي زيدان .

(٢) النقد الأدبي الحديث (بتصرف) ـ دكتور محمد غنيمي هلال ، ص ٣٧ .

عضوية في الإنسان ورموز لمعاني الأشياء .. بدأت حسيَّة ثم صارت تجريدية فهي إذن رموز لتجارب أفادها الإنسان في حياته[1].

والمحدَثون لم يستريحوا للتعريف الذي شاع في القرون الوسطى ، ورأوا فيه قصوراً في التطبيق ، ففيه التعبير بالأصوات دون الألفاظ ، وهو لا يمنع من اندراج الصراخ والموسيقى في مفهوم اللغة ، كما أنه لا يشمل أغراض اللغة المتطورة لأنه يحصر غرضها في التعبير عن المقاصد مع أنَّ أغراض اللغة ـ كما سنرى ـ قد تجاوزت هذا الحكم بكثير .

لذلك حاول المحدَثون وضع تعريف للغة يساير تطورها كما نراه الآن . ونورد في هذا المجال تعريفين ، أحدهما للمفكرين من غير علماء النفس ، والثاني لعلماء النفس .

أما تعريف المفكرين من غير علماء النفس فهو : « اللغة ألفاظ يُعبِّر بها كل قوم عن مقاصدهم ، وتتخذ أداة للفهم والتفاهم والتفكير ونشر الثقافة والمعارف الإنسانية ».

وقد روعي في هذا التعريف ما تتركه اللغة من آثار في واقع الحياة وهي :

١- التعبير عما يجول في النفس من أحاسيس وأفكار .

٢- سهولة التفاهم بين الناس ، وفهم ما يتبادلونه من آراء وأفكار .

٣- ضبط التفكير ودقته .

٤- نشر الثقافة بين الناس وتسجيلها ونقلها للأجيال .

وأما تعريف علماء النفس فهو : « اللغة هي الوسيلة التي يمكن بها تحليل صورة أو فكرة ذهنية إلى أجزائها أوخصائصها بحيث يمكن بها تركيب هذه الصورة مرة أخرى في أذهاننا أو أذهان غيرنا بوساطة تأليف كلمات في وضع خاص »[2].

---

(١) النقد الأدبي الحديث (بتصرف) ـ دكتور محمد غنيمي هلال ، ص ٣٧ .

(٢) اللغة العربية . . أصولها النفسية وطرق تدريسها ـ عبد العزيز عبد المجيد ـ دار المعارف : ١/١٥ .

هذا التعريف يبيِّن الخصائص النفسية للغة ، وقد روعي فيه جانبان :

١- حالة التعبير أو الإرسال .

٢- حالة الاستقبال أو التلقي .

- عناصر اللغة :

وما دامت اللغة هي ألفاظًا ، فإن موضوعها يشمل العناصر الآتية :

١- المفرد :

واللفظ المفرد هو أول ما وُضِعَ من الكلام ، وفيه تبدو اللغة في أبسط مظاهرها ، لأنَّ دلالته هي الفكرة الواحدة البسيطة سواء أكانت دلالة مستقلة أو بطريق الاشتراك مع ألفاظ أخرى مثل المترادفات . . وسواء خُصَّ اللفظ بمعنى واحد أو كانت له معان ويظهر المراد منها بالقرائن . .

ونريد بـ « اللفظ المفرد » ـ هنا ـ الأسماء مطلقًا ، دون الأفعال أو الحروف، لأنَّ الفعل لا يقع مفردًا وإن أمكن النطق به كذلك ، لاستلزام الفعل فاعله ، والحروف ليست لها دلالة مستقلة .

والاسم المفرد ـ سواء أكانت دلالته حسِّية مثل الورق ، أو معنوية مثل الحرية ، فإنَّ هذه الدلالة لا يمكن استفادتها من الاسم إلا بعد تجارب يمر بها الإنسان مع اللفظ نفسه ، وهذه التجارب في الغالب تعتمد على المراحل الآتية:

أولاً : كثرة المشاهدة والتكرار .

ثانيًا : موقف الإنسان من هذا الشيء المتكرر المشاهَد .

ثالثًا : اختيار الإنسان ضابطًا لهذا الشيء وإطلاقه عليه .

رابعًا : اشتهار ذلك الشيء بهذا الإطلاق وارتباطه به في الذهن وجودًا أو عدمًا .

هذه المراحل نظنها ضرورية لمشكلة وضع الأسماء على مسمياتها ، ويمكن أن نسميها تجارب أصلية عامة كان لها دور كبير ـ وما زال ـ في وضع المفردات .

وهناك تجارب طارئة خاصة تكتنف دلالة المفرد ، وتثير في الذهن شعورًا خاصًّا مفرحًا أو مقبضًا حسب تجارب الشخص ونوعها .

فكل لفظ يحمل معه تجربة عامة أصلية ، كانت السبب المؤثر في الوضع اللغوي ، ولعل هذه التجارب هي التي حدت ببعض اللغويين[1] إلى القول بأنَّ بين الألفاظ ومدلولاتها تلازمًا طبيعيًّا .

وقد يحمل اللفظ معه تجربة خاصة طارئة ، فكلمة «سجن» أو «حبس» تثير في النفس شعور القلق والنفور . . . وهذه تجربة أصلية عامة ، وقد تثير هذه الكلمة ـ سجن ـ شعور الابتهاج والسرور إذا كان بين مَن يسمعها إنسان قد عمل في السجن ، وترقَّى في درجات الوظائف فيه ، وعاد عليه نفع كبير طيلة توليه عمله به ، أو تمتع فيه بإدارة عمل حققت له نجاحًا وشُهرة[2].

وهذه تجربة طارئة خاصة لا يحس بها إلا مَن كانت له هذه الصفة ، فإذا سمع هذه الكلمة آخر كان قد أمضى عقوبة في السجن وذاق في أثنائها ألوان العذاب والبؤس ، فإنه يكاد يطير فزعًا لما تثيره فيه هذه الكلمة من الظلال الرهيبة ، والذكريات الأليمة .. وذلك لاختلاف التجربة عند الرجلين فاختلفت آثار الكلمة في النفس ، وتباينت قيمتها الشعورية .. كل حسب تجربته الخاصة. فهذه كلمة واحدة ولكن معناها النفسي يختلف من فرد إلى آخر ، لأنه معنى ذاتي خاص مقيَّد بتجارب الشخص نفسه .

فالمعنى النفسي للفظ إحساس وشعور خاص وليد التجارب ، والتجارب تختلف ، فهو معنى ثانوي إذا ما قيس بالمعنى الواقعي لمدلول الألفاظ .

ويراد بالمعنى الواقعي : الخصائص التي استفيدت من التجارب الأصلية العامة التي مَرَّ بنا شرحها .

---

(١) مثل سليمان الصيمري .

(٢) اللغة العربية . . أصولها النفسية (بتصرف) ـ عبد العزيز عبد المجيد ص ٢٩، ٣٠.

وعلى هذا فإنَّ الدلالة الواقعية هي الأصل المعتَبر في كل تعبير وهو المعنى الثابت للكلمة أو الدلالة القاموسية ، وإلى هنا يمكننا أن نوجز وظيفة اللفظ المفرد من حيث الدلالة على معناه المستفاد من التجارب الأصلية العامة . ونحلل هذه الوظيفة إلى المظاهر الآتية :

إنَّ لكل لفظ دلالة واقعية عامة هي الأصل ، وقد تكون له دلالة طارئة خاصة ناتجة عن تجربة خاصة عاناها بعض الأفراد ، والدلالة الواقعية العامة ضربان :

الأول : دلالة سارة بأصل وضعها مثل : السعادة ، النور ، الفاكهة ، الورد ، العسل .

الثاني : دلالة مقبضة بأصل وضعها ـ كذلك ـ مثل : الشوك ، الظلام ، الحنظل .

والمرجع في هذا كله هو التجارب ، فإذا وُجد إنسانٌ لم يكوِّنْ تجربة عن كلمة ، أو لم يدرك تجربتها الأصلية العامة ، وجهل معناها ، فإنه يكون ذا شعور متبلد لدى سماعه لها لا تثير فيه شعورًا أي شعور .

ويقارن علماء النفس بين الدلالتين ـ الأصلية العامة والطارئة الخاصة ـ على النحو التالي :

أولاً : أنَّ المعنى الواقعي العام موضوعي مشترك ، يدرك مغزاه الجميع ، ويمكن نقله .

أما المعنى النفسي .. فذاتي خاص لا يدركه إلا الشخص نفسه موضوع التجربة ، ولا يمكن نقله .

ثانيًا : أنَّ المعنى الخارجي العام هو الدعامة التي يقوم عليها أساس التخاطب بين الناس ليمكن تصور المعنى على وجهة لا تختلف من فريق إلى فريق .

والمعنى الذاتي بمنأى عن هذه المنزلة ، فهو معنى ثان قد يُثار لدى الشخص إذا توافرت عنده دواعيه ، فلا يصلح أن يكون وسيلة للتفاهم .

- عناصر المعنى اللغوي :

الدلالة بنوعيها ـ الواقعي والخاص ـ تسمى الوظيفة الإشعاعية للفظ ، ويبدو الإشعاع واضحًا عندما يكون اللفظ دالاً على ذات ، لأنه عند سماعه يثير في الذهن مدلوله الخارجي بشكله وهيئته وخصائصه وهذا هو المراد بالإشعاع ، إذ هو قوة الإيحاء الذهني ، ووضوح التصوير ، وهذا المعنى هو ما كان شائعًا في دلالات اللفظ في اللغة القديمة قبل مرحلة التجريد ، ويعزو بعض العلماء نشوء فكرة السحر والرقيا بوسيلة الكلمات إلى تلك القوة التصورية التي كانت تشع من اللفظ فجعلهم ينظرون إليه كأنه المدلول عليه نفسه بما له من قوة تصوير[1].

أما عناصر هذه الدلالة الإشعاعية ـ أو المعنى ـ فإن العلاَّمة «ريتشاردز» يراها على النحو التالي[2] :

١- المدلول : وهو الشيء المقابل للكلمة ، في عالم الواقع ، سواء أكان هذا المقابل ذاتًا أو معنى يحصل تصوره في ذهن السامع .

٢- الشعور الوجداني : ويراد به شعور المتكلم نحو الشيء الذي هو موضوع الحديث ، فلكل مدلول عليه شعور وجداني خاص هو الذي يساورنا حين نذكر الكلمة الدالة عليه . مثل : أب ـ وطن ـ غول ـ تفاح .. ألا تحس بتغيير في شعورك الخاص نحو مدلول كل من الكلمات السابقة ؟

وهذا الشعور الوجداني هو الذي يرتبط بمدلول كل كلمة ، فهو عنصر من عناصر المعنى الذي تحمله الكلمة في مدلولها العام ، وقَلَّ أن تتجرد عنه كلمة إلا إذا كانت رموزًا رياضية أو علمية لم ترتبط بشعور خاص مثل الرقم (٩٩٠) والعلامة (+) ... وهكذا .

---

(١) النقد الأدبي الحديث ـ دكتور محمد غنيمي هلال ص ٣٧٠ .

(٢) اللغة العربية . . أصولها النفسية وطرق تدريسها ـ عبد العزيز عبد المجيد ص ٣١ .

٣- النغم : فكل متكلم يعطى اللفظ نغمة خاصة تناسب حاله النفسية وتدل عليها مثل أن تقول : أنا فلان ـ في حالة فخر ، وفي حالة إجابة عن استفهام عادي ، فإنَّ النغمة في حالة الفخر تختلف عنها في حالة الاستفهام العادي . . حادة قوية في الأولى ، رقيقة في الحالة الثانية .

ولذلك كان النبر في الكلام ذا دلالة واضحة على اختلاف المعاني مع اتحاد العبارات ، ولذلك فإنَّ كتابة العبارة تجردها من ميزة النغم ، وتمخضها لدلالة واحدة هي التي جرى عليها الوضع والعُرف اللغوي .

٤- القصد : وهو ما يرادف الحال في البلاغة العربية ، إذ هو الأمر الذي يدعو المتكلم إلى أن يقول كلامًا ما ، وهذا العنصر خارج عن مدلول اللفظ الذاتي ، بخلاف العناصر الثلاثة السابقة فإنها ذاتية له[١] .

- الجملة اللغوية :

الجملة اللغوية ـ سواء أكانت إسمية أو فعلية ـ أول مظهر مستقل من مظاهر اللغة لأن مدلولها معنى تام غالبًا ، وفي الجملة يظهر نوع من براعة التعبير حيث يُضَم معنى مفرد إلى آخر ، واللوحة الفنية لا تحوز الإعجاب إن كانت مصنوعة من لون واحد ، وإنما تحوز نصيبًا منه إذا تألفت من لونين مثلاً .

وإلى هذا المعنى يشير شيخ البلاغة العربية عبد القاهر الجرجاني في كتابه « دلائل الإعجاز » إذ يقول :

« والألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة ، ولا من حيث هي كلم مفردة . ولكن الألفاظ تثبت لها الفضيلة وخلافها في ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها ، أو ما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ ، ومما يشهد لذلك أنك ترى الكلمة تروقك وتؤنسك في موضع ، ثم تراها بعينها تثقل عليك في موضع آخر »[٢] .

---

(١) اعتمدنا في تلخيص نظرية هذا المستشرق على كتاب : اللغة العربية . . أصولها وطرق تدريسها ، عبد العزيز عبد المجيد .

(٢) دلائل الإعجاز ـ عبد القاهر الجرجاني ص ٣٥ ، ٣٦ .

وتقوم فلسفة الجملة اللغوية على قاعدة مؤداها أن تكشف العلاقة بين مفردين حقيقة أو تقديرًا ، حقيقة في الإسمية وتقديرًا في الفعلية ، وهذا هو أبسط تصور للجملة ، فإذا تجاور مفردان على جهة من جهات الارتباط المعتبرة في تكوين الجملة ، صار ذلك المفردان «جملة» أو ألفاظًا مركبة تؤدي معنى من أجله صيغ التركيب .

وأنواع الكلمة المكونة للجملة اسم أو فعل ، لأن الاسم والفعل لهما دلالة مستقلة كل واحد على حدة ، ولا يدخل الحرف في تكوينها الأساسي لعدم دلالته على معنى مستقل يمكن جعله ركنًا في جملة التركيب ، وقد تنوعت الجملة في اللغة العربية إلى هذين النوعين :

جملة اسمية : وهي ما كان المسَند إليه فيها اسمًا مقدَّمًا على المسند حقيقة أو تقديرًا ، سواء أكان المسند اسمًا كذلك أو جملة أو شبه جملة ، وهي تدل على ثبوت المعنى المؤدية له .

وجملة فعلية : وهي ما كان المسنَد إليه فيها اسمًا مؤخَّرًا على المسنَد «الفعل» ضرورة . . وتدل على تجدد المعنى المؤدية له وعلى حدوثه .

وقد تقترن كلتا الجملتين بعناصر ثانوية ـ بعد ركني الإسناد ـ تزيد المعنى وضوحًا .. وترتيب تلك العناصر في الذِّكر راجع إلى قانون تنظيمي «نحوي»، أو إلى اعتبار معنوي «بلاغي» .. ولا يجري العمل فيها دونما توجيه .

والمنهج الذي تقوم عليه الجملة في اللغة العربية يختلف باختلاف نوع الجملة نفسها ، فإن كانت فعلية كان تكوينها على النحو الآتي :

الفعل + الفاعل أو ما قام مقامه + متعلقات الفعل مثل المفعول به ، وقد يُذكر بعد الفعل مباشرة غير الفاعل وغير المفعول به كالظرف إذا اقتضى ذلك مقتض .

وإذا كانت إسمية جاء تكوينها على الوجه الآتي :

المسند إليه مع توابعه + المسند + متعلقات الإسناد .

والسير على هذا المنهج العادي ليس بلازم ، لأن تكوين الجملة في اللغة العربية تراعى فيه أسس تعبيرية تقوم على اعتبارات بلاغية على هداها تكون الجملة في وضع جديد ، وهذا السلوك نراه في الأنماط الأدبية الرفيعة ، كالقرآن الكريم ، والآثار النبوية ، والحِكَم والأمثال ، ونراه في الأشعار الرائعة والنثر الفني الأصيل .

فمن القرآن الكريم نذكر : ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ﴾ (الأنعام:٥٩) ، و ﴿ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ (الأنعام:١٢٧) .. ففي الآيتين تقديم المسند «الخبر» ـ وهو الظرف في الآية الأولى ، والجار والمجرور في الآية الثانية ـ على المسند إليه فيها وهو : «مفاتح الغيب» في الأولى ... و «دار السلام» في الثانية ، ومثلها قوله تعالى : ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا ﴾ (البقرة:٢٤٧)، وقوله : ﴿ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (آل عمران:٢٦)، وقوله : ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴾ (الكافرون:٦) .

والحال كذلك في تقديم بعض المتعلقات كقوله تعالى : ﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ ﴾ (يس:٢٠) ؛ فـ«رجل» : فاعل قُدِّمَ عليه متعلق الفعل : «من أقصا المدينة» فاصلاً بينه وبين الفعل ، والمنهج العادي يأبى مثل هذا لكن الاعتبار البلاغي يوجبه .

ومن الأدب النبوي قوله عليه الصلاة والسلام : «إخوانكم خَوَلكم»[1] والتقدير : خَوَلكم إخوانكم ، وقد قال الشُرَّاح إنَّ المراد بهذا الحديث تشبيه «الخول» بالإخوان في حسن المعاملة إليهم ، وحفظ الود لهم ، فهو من التشبيه البليغ المؤكد ، فقدَّم المسند على المسند إليه اعتناءً بشأن المقدم ، واهتمامًا به ، وفي الأدب النبوي كثير من اللفتات البلاغية من هذا النوع وغيره يطول بنا التطواف لو أرخينا العنان .. فلنكتف بما قَلَّ ودَلَّ .

---

(١) صحيح البخاري .

ومن الشعر الرائع .. قال الشاعر[1] :

أأتـرِكُ إنْ قَلَّـتْ دَرَاهِـمُ خَالِـدٍ زِيَارَتَـهُ إنـّي ـــ إذَنْ ـــ لَلَئِـيمُ

وقال ابن المعتز :

وإنّي على إشْفاقِ عَيْنِي من العِدَى لَـتَجْمَحُ مِنِّـي نَظْـرَةٌ ثـم أطْـرِقُ[2]

وقال أيضًا :

وظَلَّـتْ تُـدِيرُ الـرَّاحَ أيْـدي جَـآزِرٍ عِتَـاقِ دَنَـانِيرِ الْوُجُـوهِ مِـلاحِ[3]

هذه ثلاثة أبيات من الشعر لم تجر على النسق العادي ، ففي الأول فصل بين الفعل ومعموله بجملة الشرط ، والأصل اتصال العامل بالمعمول ، كما فصل في الشطر الثاني من نفس البيت بين اسم « إن» ـ الضمير ـ وخبرها بأجنبي هو « إذن» .

كما فصل ابن المعتز في البيت الثاني بين اسم : « ظل» وبينها بالخبر : « تدير الراح» وفيه تقديم الخبر على المبتدأ أيضًا ، ففيه فصل وتقديم كما ترى.

وفي البيت الثاني فصل بين اسم « إن» وخبرها بأجنبي هو « على إشفاق عيني من العدى» كما فصل بين الفعل : « لتجمح» وفاعله : « نظرة» بالجار والمجرور : « مني» .. وغير ذلك كثير .

والطريقة التي يعتمد عليها المنهج العادي لتكوين الجملة الإسمية ـ إذا خلا المقام من دواعي التقديم والتأخير ـ أنه يفرق بين الأعرف والأقل أعرفية من ركني الإسناد الخبري ، فالأعرف هو المسند إليه ، وتقديمه هو الأصل ، والأقل أعرفيه هو المسند ، وذلك لأن المسند إليه هو موضوع الحديث ومحط الحكم ، والحكم على المجهول لا يفيد ، فإذا تساويا في التعريف فهما سيان في صحة

---

(١) هو : عمارة بن عقيل بن بلال بن جرير : والبيت في الكامل : ١٤٩/١.

(٢-٣) دلائل الإعجاز ، عبد القاهر الجرجاني ص ١٣١ .

وقوع كل منهما مسندًا إليه أو مسندًا ، والفصل في ذلك هو الاعتبار الذي يجعله المتكلم نصب عينيه ـ مراعيًا في ذلك حال المخاطب .

إنَّ طريقة التعبير في اللغة لا تخضع لقوالب جافة ، وإنما هي مرنة طوع يد المعبر تصور أحاسيسه ومعانيه ، على أي وجه أراد حسبما يقتضيه الحال .

- الأسلوب اللغوي .. معناه ، وأنواعه ، ووظيفته :

معنى الأسلوب اللغوي : تشير معاجم اللغة إلى أن مفهوم الأسلوب هو الطريقة ، يقال : سلكت أسلوب فلان ـ أي طريقته . ويقال ـ كذلك ـ : كلامه على أساليب حسنة[1] .

كما يقال للسطر من النخيل : أسلوب ، وكل طريق ممتد فهو أسلوب . والأسلوب : الطريق والوجه والمذهب . يقال : أنتم في أسلوب سوء ، ويجمع على أساليب ، والأسلوب : الطريق تأخذ فيه ، والأسلوب : الفن ، يقال : أخذ فلان في أساليب من القول : أفانين منه[2] .

هذا معنى الأسلوب في القواميس وأسفار اللغة ، والمتأخرون متأثرون بهذه التوجيهات في ضبط الأسلوب . ونعرض فيما يأتي آراء اثنين فذين منهما :

- رأي عبد القاهر الجرجاني :

الأسلوب عند عبد القاهر الجرجاني يشمل جانبين : طريقة التفكير .. ثم طريقة الأداء اللفظي الذي يتجلى في أنماط التعبير .. قال[3] : «واعلم أن الاحتذاء عند الشعراء ، وأهل العلم بالشعر وتقديره وتمييزه ، أن يبتدئ الشاعر في معنى وغرض أسلوبًا ـ والأسلوب : الضرب من النظم والطريقة فيه ـ فيعتمد شاعر آخر إلى ذلك الأسلوب فيجيء به في شِعره» ..

---

(١) تاريخ الأدب في عصره الذهبي : عبد الرحمن عثمان ص ١٠٢ .

(٢) الأسلوب : أحمد الشايب ص ٤١ .

(٣) دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني ص ٣٣٨ ، ٣٣٩ .

ويلاحَظ أن ابن خلدون عندما تحدث عن الأسلوب إنما كان يضع نصب عينيه الأسلوب في الصناعة الشِّعرية ، ولكنه عاد فعمَّم تلك القواعد التي يراها هو للأسلوب على المنظوم والمنثور إذ يقول : «وهذه القوالب كما تكون في المنظوم ، تكون في المنثور»[1].

هذه خلاصة مفهوم الأسلوب عند أديب ناقد ، هو عبد القاهر الجرجاني ، وعالم مؤرِّخ هو عبد الرحمن بن خلدون ، وإننا حين نقارن بين ما قرراه ، لا نجد كبير خلاف بل هما ينزحان من دلو واحدة ، وإن اختلفا في طريق الورود.

فقد رأينا الشيخ عبد القاهر يجعل الأسلوب منتزعًا من توخي معاني النحو بين الكلم ، وفي نفس الوقت ينكر ابن خلدون هذا الفهم ، ويجعله خارجًا عن مفهوم الأسلوب .

ويخص ابن خلدون الأسلوب بالصور الذهنية المنتزعة من التراكيب الصحيحة وقد رأينا عبد القاهر لا يغفل قضية هذه الصور الذهنية ، بل يجعلها الأساس الذي يصنع التراكيب حين تؤدي أداءً لفظيًّا بحيث يكون الأداء اللفظي تابعًا لترتيب المعاني في النفس .

والحقيقة أن الخلاف بين الرجلين يكاد يكون لفظيًّا ، لأنهما يلتقيان عند الركنين الأساسيين للأسلوب : المعاني والألفاظ ، وأحدهما ينظر إلى الألفاظ باعتبار تأديتها للمعاني وهو عبد القاهر ، والثاني ينظر إلى المعاني باعتبار صياغتها في تراكيب منتقاة ، وهو ابن خلدون . . فهما ـ إذن ـ متفقان في الجملة.

وقديمًا نحا أرسطو منحى عبد القاهر ، إذ يرى أن الأسلوب هو «طريقة الصياغة»[2] أو الأداء اللفظي الذي يتخذه الأديب أداة للتصوير والإبانة عن مشاعره وأحاسيسه ونقل تلك المشاعر والأحاسيس إلى الآخرين .

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٥٧٠ ، ٥٧١ . .

(٢) النقد الأدبي الحديث : دكتور محمد غنيمي هلال ص ١٧٩ .

كما نحا عبد الرحمن عثمان هذا المنحى إذ يقول : «الأسلوب هو طريقة التعبير اللفظي الجارية على نسق الفكرة والمعربة عن أدق خفاياها»[1].

ولا أخفي أنني أميل إلى مدرسة عبد القاهر الجرجاني في حد الأسلوب ومقوماته ، وإن كنت أرى أن كلامه فيه مفتقر إلى الصقل والتركيز .

وقد قسَّموا الأسلوب اللغوي إلى قسمين هما :

أولاً : الأسلوب العلمي

تتسع وظيفة الأسلوب في العصر الحديث ، وتخرج عن دائرة اختصاصها إلى ميادين أوسع وأرحب فيقال : أسلوب السياسة ، وأسلوب الحكم ، وأسلوب الإدارة .. هذه استعمالات نقرأها اليوم في الصحف ، ونسمعها في الإذاعة والتليفزيون ولم تعد الكلمة مقصورة على فن القول .

ولا غرابة فإن الأسلوب ملحوظ فيه معنى الطريقة ، وهذا المعنى هو الذي جوَّز التعميم في الإطلاق ، ولكن المعتبر من هذه الإطلاقات التي شاعت الآن نوعان : الأسلوب العلمي ، والأسلوب الأدبي .. ولكل من النوعين خصائص ومميزات .

والفرق الجوهري الذي يميز بين الاثنين هو موضوع الحديث ، والفكرة التي يكشف عنها ، فإن كان موضوع الحديث حقائق ثابتة يراد شرحها وتلخيصها لتقر في الأذهان ، وتأخذ شكل القوانين اليقينية أو ما يقرب منها ، ويهدف منها الكاتب إلى إقناع القارئ أو السامع بالنتائج التي يتوصل إليها . ومثل هذا النوع من الأفكار يتطلب من الكاتب أو الباحث عملاً مخصوصًا ... وطريقة معيَّنة ، وهذا يُعرف بالأسلوب العلمي ، ويتبع فيه الكاتب الخطوات الآتية :

فعليه أولاً : أن يختار الأفكار التي يريد شرحها لجدتها أو قيمتها العلمية .

---

(١) تاريخ الأدب في عصره الذهبي : عبد الرحمن عثمان ص ١٠٥ .

ويتسع معنى الأسلوب عنده فينتظم من حيث التقعيد له ، ووضع أصوله نظريات علم المعاني وما قرره فيها من توجيهات بلاغية لها بالأسلوب أوثق صلة .

ولا يهمل عبد القاهر توجيهات علم «النحو» وعلم «التصريف» ، بل جعل النظم ـ الذي يرادف الأسلوب عنده ـ هو توخي معاني النحو بين الكلم . وهو بهذا يضفي على النحو مفهومًا أوسع من عُرف النحاة أنفسهم ، فحكم اللفظ النحوي تابع لمعرفة معناه ووظيفته في الأسلوب ، وتوخي النحو بين الكلمات هو معرفة مواضعها من الصياغة الأسلوبية ، قال : « إنه لا يتصور أن تعرف للفظ موضعًا من غير أن تعرف معناه ، ولا أن تتوخى الترتيب في الألفاظ ـ من حيث هي ألفاظ ـ ترتيبًا ونظمًا دون أن تتوخى الترتيب في المعاني ، وتعمل الفكر هناك ، فإذا تم لك ذاك أتبعتها الألفاظ ، وقفوت بها آثارها ، وإنك إذا فرغت من ترتيب المعاني في نفسك لم تحتج إلى أن نستأنف فكرًا في ترتيب الألفاظ ، بل تجدها تترتب لك بحكم أنها خدم للمعاني ، وتابعة لها ، ولاحقة بها .. وأن العلم بمواقع المعاني في النفس علم بمواقع الألفاظ الدالة عليها في النطق»[1].

والخلاصة أن عبد القاهر في هذا النص يربط ربطًا محكمًا بين مظهري الأسلوب الآنفي الذكر : طريقة التفكير ، ثم الأداء اللفظي ، فالأسلوب ـ عنده ـ مجموع الأمرين ، وتوخي معاني النحو هو الذي يجعل الأسلوب يبدو بهذه الصورة المتألقة .

ويرى بعض المحدَثين[2] أنَّ عبد القاهر تفوته سمة لها وزنها في الأسلوب لم يتحدث عنها وهي اختيار الألفاظ والتأنق في الصياغة .

والمدقق في هذا النص المذكور لعبد القاهر يرى أن عبد القاهر لم يفته ما آخذوه عليه . لأنه ـ أي عبد القاهر ـ لا يمنع على المفكر أو الأديب اختيار

---

(١) دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني ص ٤٣ .

(٢) هو عبد الرحمن عثمان في كتابه «تاريخ الأدب في عصره الذهبي» ص ١٠٣ وما بعدها .

الألفاظ ، ولعله ترك النص عليها ـ هنا ـ إحالة على ما ذكره في موضع آخر مما هو صريح في الدعوة إليها ، وقد نقلنا نصًّا له قبل ذلك بقليل[1] يكفي مجرد الاطلاع عليه لتبرئة عبد القاهر مما رُمِيَ به فكان تحري الدقة في الحكم على الرجل وتوجيهاته أولى بالمتعجلين .

- **رأي ابن خلدون :**

الأسلوب عند ابن خلدون لا يرجع إلى إفادة التراكيب أصل المعنى (النحو) ولا إلى كماله (البيان) ولا موافقته للوزن (العروض) فذلك كله خارج عن صناعة الأسلوب ـ شعرًا ونثرًا ـ ، وإنما الأسلوب عنده هو : الأداء اللفظي المطابق للصورة الذهنية لمفهوم الأسلوب الناجم عن قوة المَلَكة في اللسان العربي الذي هو ثمرة الاعتماد على الطبع والتمرس بالكلام البليغ [2] .

ويسوق ابن خلدون نصًّا[3] مطوّلاً عن الأسلوب يخرج منه الباحث بالنتائج الآتية :

(أ) لا يدخل النحو ولا البلاغة ولا العروض في مفهوم الأسلوب .

(ب) يرجع الأسلوب إلى الصور الذهنية للتراكيب المنظمة كلية باعتبار انطباقها على تركيب خاص ، وتلك الصورة ينتزعها الذهن من أعيان التراكيب ، ويصيرها كالقالبِ أو المنوال ، ثم ينتقي لها التراكيب الصحيحة عند العرب باعتبار الإعراب والبيان .

(جـ) لكل فن من فنون الكلام أسلوب خاص يميزه عما سواه من الفنون ، فأسلوب الشِّعر غير أسلوب النثر ... وهكذا .

(د) إن الأساليب ليست من القياس في شيء ، بل هي هيئة ترسخ في النفس من تتبع التراكيب العربية شِعرًا ونثرًا ، لجريانها على اللسان ، حتى تستحكم صورتها فيستفيد بها العمل .

---

(١) انظر ص ٣٦ من هذا البحث .

(٢) تاريخ الأدب في عصره الذهبي : عبد الرحمن عثمان ص ١٠٣ ، ١٠٤ .

(٣) مقدمة ابن خلدون ص ٥٧٠ ، ٥٧١ .

ثم عليه ثانيًا : أن يرتب هذه الأفكار ترتيبًا منطقيًا ليكون ذلك أدعى إلى فهمها وحسن تنسيقها وارتباطها في الذهن ، وتسلسلها المؤدى إلى فهمها وقبولها .

وعليه ثالثًا : أن يختار الألفاظ الواضحة الدلالة الملائمة للفكرة ليكشف بها عما في نفسه من قيم وحقائق وأفكار ، وهو يتوجه بهذه الحقائق والأفكار إلى العقل ؛ لأنه مركز التلقي والتحليل والاستنتاج ـ فالأسلوب العلمي موضوعه حقائق ذهنية ومظهره العام خبري يجلي الواقع ويوضحه مؤيدًا حقائقه بالأدلة والبراهين ـ عقلية ، أو نقلية ، أو تجريبية ـ والفكرة فيه يجب أن تنمو نموًا تصاعديا ، وهذا يقتضي تقسيمها إلى أجزاء ، والألفاظ فيه يجب أن تكون محددة المعنى حتى لا يؤدي ذلك إلى غموض في الاستنتاج .

ومن المسلَّم به أن الأسلوب العلمي تستخدم فيه ـ أحيانًا ـ بعض مظاهر الأسلوب الأدبي ـ كالتشبيه والمجاز ، ولكن معناه ـ والحالة هذه ـ يظل ذهنيًا رتيبًا ، يدل على حقائق جافة تخاطب العقل ، ليس للعاطفة فيها أدنى نصيب .

الكلمات في الأسلوب العلمي لابد أن تدل على معانيها الوضعية أو الاصطلاحية الفنية ، ولهذا اشترط المناطقة تجريد الألفاظ من معاني المجاز وإبقاءها على معانيها الوضعية وعابوا على السوفسطائيين استخدامهم المجاز في القياس لأنه يؤدي إلى المغالطة في الاستنتاج .

ثانيًا : الأسلوب الأدبي

الأسلوب الأدبي كالأسلوب العلمي فيه «أفكار» وله «ألفاظ» تحمل تلك الأفكار ، والاختلاف بينهما يأتي من حيث نوع الفكرة التي يؤديها كل منهما ، والعبارات الدالة عليها ووسيلة الإدراك التي يخاطبها ، والفكرة فيه غير الحقائق الثابتة .

بل هي معان وليدة الإحساس والشعور ، ورؤى هي في طبيعتها فردية خاصة وإن اشترك فيها كثير من الأدباء ، وقد تكون الفكرة في الأسلوب الأدبي

حقيقة ثابتة لكن الأديب لا يعرضها في قوالب جافة وقوانين منطقية بل يعرضها عرضًا أدبيًا أخاذًا كقوله عليه السلام : « إياكم وخضراء الدمن » .. قيل: من هي يا رسول الله ؟ قال : « المرأة الحسناء في المنبت السوء »[1] فالحقيقة الثابتة ـ هنا ـ معروضة مع دليل التنفير منها لكنه دليل أدبي ذوقي .. لا علمي منطقي ، ولذلك اختص الأسلوب الأدبي بالخصائص الآتية :

(أ) استثارة العاطفة :

العاطفة هي قِبْلة العبارة الأدبية ، إياها تعني ولها تتحدث ، والعاطفة تتلقى شعورًا وانفعالات ، فتتأثر بها ، وتتأمل ما تتأثر به ، ولابد لها من موقف إزاءه ، هذا الموقف قد تتفق فيه العاطفة المتأثرة مع العاطفة المؤثرة ، وقد تختلف معها ، ولكنه على كل موقف صنعه ذلك التأثر ، وهذا الموقف هو المسمى بالاستجابة للعمل الأدبي شِعرًا أو نثرًا وهو ـ كما في الحديث ـ إثارة شعور النفرة من المرأة المذكورة ، وقد تكون الاستجابة إمتاعًا جماليًا مستوحى من التجربة موضوع الحديث ، وقد تكون إشفاقًا أو رثاءً .

(ب) الخيال :

ليس من سبيل أمام الأديب عندما يريد نقل تجربته ، والتعبير عن شعوره وانفعالاته إلا الخيال الخصب ، والصور الأدبية الناضرة يتخذ منها وسيلة للإبانة والكشف عما في الشعور ، شريعة الأديب في البيان هي المجازات والتشبيهات والكنايات ، وتصيد المشاهد الحية .. فالذي يُشرك بالخالق هاوٍ سقط من السماء فتوزع في حواصل الطيور ، أو جرفته الريح إلى مهاوي الهلاك السحيقة، والرجل الشجاع القلب أسد يزأر في صحراء مخيفة ، والكريم الذي يصل رفده لكل سائل بحر زاخر يروي الظامئين ، والمتردد في أمره كالواقف في مكان يرفع رِجلاً مرة ويضع مرة أخرى ... والأغصان تحركها النسمات عرائس تتعانق بعد غياب طال .

---

(١) صحيح البخاري .

ولعل في بيت ابن الرومي الآتي ـ يصف الطبيعة أيام الربيع ـ أكبر دليل على ما نقول :

تَبَرَّجَـــتْ بعـــد حَيَـــاءٍ وَخَفَـــرْ تَبَـــرُّجَ الأُنْثَـــى تصَـــدَّتْ لِلـــذَّكَرْ !

والآن نوجز أهم الفروق بين الأسلوبين ..

- الفروق بين العلمي والأدبي :

١- الأسلوب العلمي يخاطب العقل ـ وموضوعه حقائق ثابتة أو كالثابتة ، وقَلَّ أن نجد فيه أثرًا للانفعال ، بينما الأسلوب الأدبي يخاطب العاطفة فيثيرها بما يبسطه أمامها من تجارب وقيم شعورية ، وغايته الإمتاع الجمالي والإقناع الذوقي ، أما العلمي فهدفه الإقناع العقلي بما يستخلصه من نتائج مدعومة بالدليل .

٢- العبارات في الأسلوب العلمي دقيقة محددة الدلالة لا إيحاء فيها ولا تعميم .

وفي الأسلوب الأدبي نجد فخامة الألفاظ والإيحاء والإثارة والشمول ، وشيوع الخيال بما في اللفظ من دلالة مجازية وتشبيهية أو كنائية .

٣- التجربة في الأسلوب العلمي وسيلة إلى غاية أكبر منها تصير في النهاية قاعدة أو قانونًا ، وليس للتجربة بعد صياغة القاعدة منها أي قيمة إلا من حيث هي مظهر «تاريخي» من مظاهر تطور العلوم[1] .

أما التجربة في الأدب فهي نفسها «الغاية» .

(جـ) التكرار لا يُحمد في الأسلوب العلمي ، بينما يقوم بوظيفة هامة في الأسلوب الأدبي إذا دعت إليه ضرورة بيانية .

مثاله من القرآن تشبيه المنافقين بـ «رجل استوقد نارًا» مرة ، ثم تشبيههم بعد ذلك مباشرة بـ «ذي صَيِّب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق» ... !

وتشبيه أعمال الكافرين بـ «السراب يحسبه الظمآن ماءً» مرة ، ثم تشبيهها بعد ذلك بـ «ظلمات في بحر لجي» ...

---

(١) النقد الأدبي أصوله ومناهجه : سيد قطب ص ٤٨ .

- صلة التعبير اللغوي بالتفكير :

ولتحديد المشكلة في هذا الفرع نسأل سؤالاً فحواه :

هل يمكن التفكير بدون لغة ؟ أم اللغة ضرورية في كل عملية تفكير ؟

ويجيب على هذا السؤال فريق من العلماء بما حاصله : إنَّ اللغة ليست ضرورية ـ دائمًا ـ في كل عملية تفكير ، إذ يمكن التفكير بدون لغة كما في حالات التأمل الذاتي ـ حديث النفس الصامت ـ وتنحصر وظيفة اللغة عند هذا الفريق في نقل الفكرة إلى الآخرين ، فهي مظهر خارجي للتفكير فقط ....

وآخرون أجابوا عن السؤال بما يلي : إنَّ اللغة ضرورية في كل تفكير مفيد، والإنسان يفكر بمعونة الكلمات لأنها ظلال للمعاني ، ولا يمكن أن نفكر تفكيرًا منتظمًا سليمًا إلا بإدراك العلاقات بين مدلولات الألفاظ سواء أكان ذلك تفكيرًا صامتًا ـ حديث النفس ـ أو كان ذا صوت مسموع ، أما التفكير بدون لغة فيمكن إذا استبدلنا باللغة رموزًا أخرى تحل محلها في الدلالة ، وإذا كان الأمر كذلك ، فإن هذه الرموز تصير لغة بديلة ، وتكون النتيجة أن اللغة ضرورية في كل تفكير .

يقول الدكتور «بلارد» : هل نستطيع التفكير بدون لغة ؟ نعم .. إذا استطعنا أن نحل محل اللغة رموزًا أخرى .. ولكن كلما زاد التفكير عمقًا من المقارنة والاستنباط والوصول إلى الأحكام العامة ، زادت حاجة العقل إلى استخدام اللغة ، وإذا أمكن التفكير بدون لغة فإن هذا التفكير لا يستمر طويلاً وهو في هذه الحالة ـ أي التفكير ـ يحتاج إلى اللغة ليعتمد عليها في تحديده ودقته ، نعم إنَّ اللغة غير ضرورية لكل عمليات العقل ، ولكنها لا بد منها عند التفكير المعنوي المحض[1].

والذي أختاره في هذا المجال أن اللغة ضرورية لكل تفكير ، لأن التفكير عمل ، ولكل عمل مادة ومجال ، ومادة التفكير لا تتحقق إلا عن طريق

---

(١) اللغة العربية .. أصولها النفسية ، وطرق تدريسها ـ عبد العزيز عبد المجيد .

وحدات تدل على أجزائها وهي ـ هنا ـ المفردات اللغوية ، وإذا تطورت الفكرة فلا بد من تركيب وحداتها الدالة عليها ـ في جمل أو أسلوب ـ والعقل المفكر لا يصنع تفكيره من الوهم بل لا بد من ضبط أجزاء الفكرة بضوابط يستطيع إخضاعها في عملية التفكير للتصور والقياس ، وإلا كان التفكير أوهامًا تتبدد سراعًا .

والإنسان يفكر ـ أحيانًا ـ نتيجة لما يسمعه أو يقرأه ، والتفكير الاجتماعي يصحبه تعبير ، والتعبير في أسمى مظاهره يتكوَّن من جمل وأساليب ، وإذن فلدينا دائرة متصلة الحلقات ، تبدأ بتأثر الفرد بالمجتمع عن طريق اللغة ـ سمعًا أو قراءة أو رؤية ـ فيفكر نتيجة لهذا التأثر ثم يُعبِّر عن تفكيره وهكذا تصبح اللغة سببًا ونتيجة معًا ، سببًا في التفكير ونتيجة له .

– مناقشة سريعة :

والآن هل يستطيع القائلون بجواز التفكير بدون لغة أن يجيبوا على هذه الأسئلة ، وإذا أجابوا فإلى أي مدى تكون إجاباتهم صائبة ؟

س : هل يمكن أن يجري الإنسان معادلة جبرية دون أن تكون هناك رموز ـ نائبة عن اللغة ـ تمثل حدى المعادلة ؟

س : هل يمكن أن يتوصل إنسان إلى نتيجة قياس منطقي ما لم تكن هناك ألفاظ أو عبارات تتكون منها مقدمتا القياس ؟

س : لو عزلنا طفلاً ـ منذ ولادته ـ عن أي مؤثر خارجي يتعلم من خلاله مفردات لغوية وأهملناه من هذه الناحية حتى بلغ قادرًا على الكلام ، فإذا طلبنا منه أن يُكوِّن جملة لغوية فهل يمكن أن يفهم ما نقول ؟ . وإذا فهم ـ وهذا محال ـ فهل يستطيع أن يُكوِّن تلك الجملة ؟

لا أظن أن لدى القائلين بإمكان التفكير بدون لغة إجابات مقبولة على هذه الفروض ، وغيرها كثير .

ومن هنا تظهر أهمية اللغة في التفكير إذ هي وسيلته تكوينًا ونقلاً .. والذين يقولون بعكس هذا يجردون اللغة من أخص خصائصها .

- صلة التعبير اللغوي بالذكاء :

اللغة من حيث صلتها بالتفكير تكوِّنه وتبرزه ، ولها به صلة أخرى بعد الإيجاد والبروز ، هي أنها تسهم في كيفيته فتجعله تفكيراً ذكيًّا فيكتسب المفكر عن طريقها مَلَكة الذكاء ، والذكاء هو سرعة الفهم والاستنتاج ودقة القياس وسلامة النتائج .

وقد أشار الأستاذ «تشارلز سنكر» إلى العلاقة بين اللغة والذكاء فقال : «من المتفق عليه بين علماء اللغة عامة وجود عامل ارتباط إيجابي مهم بين نتائج قياس الذكاء والقدرة اللغوية ، ذلك لأن جزءاً كبيراً من مقاييس الذكاء المستعملة في العادة لغوي ، وعلى هذا فيجوز أن يكون هذا العامل نتيجة لأن بعض اختبارات الذكاء هي أيضًا لغوية، على أن ثمة أمراً واضحًا يستفاد من وجود هذا الأمر هو أن الإجابات اللغوية نوع هام من سلوك الإنسان الذي يمكن أن يوصف بالذكاء وعدمه»[1].

والذي يُفهم من هذا النص أن قُدرة الإنسان اللغوية تتناسب تناسبًا طرديًّا مع قدرات الذكاء ، فكلما زادت مقدرته اللغوية زادت درجة الذكاء عنده ، هـذه صلة ، وصلة أخرى بين الذكاء واللغة باعتبار اللغة جزءًا هامًّا من سلوك الذي يوصف بأنه ذكي أو غير ذكي .

ولتوضيح هذا يقول الأستاذ «ألبرت» ما نصه : «فنوع الإنشاء ذو قيمة أهم من كمها ، ولا يدل فقط على ما عند النشء من قدرة لغوية ، ولكن يدل أيضًا على ما عنده من قدرة تربوية ، بل وقبل هذا يدل على ذكاء الفرد العام ، فهو إذن مقياس دقيق من غير شك»[2] .

و«ألبرت» في هذا النص يتخذ «التعبير الإنشائي» مقياسًا من مقاييس الذكاء وكيفية التعبير هي الدلالة دون الكم ، وكيفية التعبير المشار إليها تعتمد

---

(١) اللغة العربية . . أصولها النفسية ، وطرق تدريسها ـ عبد العزيز عبد المجيد ص٤١ .
(٢) المرجع السابق ص ٥٢ .

في جودتها ـ كما يرون ـ على العناصر الآتية : صحة الأفكار وتنسيقها ، عمقها وجدتها ، ربطها ودقتها ، تسلسلها وتتابعها ، إصابة الهدف المقصود من الكلام (مراعاة الكلام لمقتضى الحال) ، اختيار اللفظ المناسب .

ولذلك فإنهم يرون أن ضعف الذكاء عند بعض الأطفال سببه ضعف القدرات العامة عنده ، ولا سيما اللغة كالقراءة والهجاء ، كما يرون أن الصم البكم لا تصل نسبة ذكائهم إلى ما تصل إليه نسبة الذكاء عند الأطفال العاديين ، ذلك لأنهم محرومون من استخدام اللغة .

والواقع أن اللغة عامل هام في تنمية الذكاء وحدته ، ما دامت اللغة هي الأداة في التفكير ، فالأشخاص الذين يفكرون تفكيراً عميقًا مضطرون للبحث عن معلومات ومعارف ، ونتيجة ذلك أنهم يحصلون على ثروة هائلة من تلك الأفكار ، وبديهي أن هذه الأفكار تستدعى الكلمات التي تدل عليها ، وبها يكون التحصيل والتفكير .. ونحن نطلق على مثل هؤلاء أنهم مفكرون أذكياء .

- وظيفة اللغة ـ إذن ـ ما هي ؟

إن الشائع بين الناس ـ قديمًا وحديثًا ـ أن اللغة وسيلة لنقل الأفكار ، وحول هذا المعنى حام كثير من المفكرين ، فهذا «هنري سويت» يُعرِّف وظيفة اللغة تعريفًا كلاسيكيًا فيقول : «إن اللغة هي التعبير عن الأفكار بوساطة الأصوات الكلامية المؤتلفة في كلمات»[1] .

ويذهب «إدوارد سابير» ، نفس المذهب إذ يقول : «اللغة وسيلة إنسانية خالصة وغير غرزية إطلاقًا لتوصيل الأفكار ، والانفعالات والرغبات عن طريق نظام من الرموز التي تصدر بطريقة إرادية»[2] .

ويتابع الأستاذين «هنري» و«إدوارد» كثير من المحدَثين على ما بينهم من اختلافات في المذاهب الفكرية ... إذ يرون أن الوظيفة الأساسية للغة هي أنها

---

(١) اللغة والمجتمع : محمد السعران ص ١١ ـ ط . دار المعارف ـ الإسكندرية .
(٢) المرجع السابق ص ١٣ .

وسيلة من وسائل الاتصال أو التوصيل ، أو النقل أو التعبير عن طريق «الأصوات الكلامية» وأن ما توصله اللغة أو تنقله أو تعبر عنه هو الأفكار والمعاني والانفعالات والرغبات ... إلخ ، فاللغة عندهم لا تعدو أن تكون مرآة عاكسة للفكر ، أو مستودعًا للفكر المنعكس .. ويلخص «جوفنز» الإنجليزي وظيفة اللغة فيما يأتي :

١- إنَّ اللغة وسيلة للتفكير .

٢- إنها عون آلي للتفكير .

٣- إنها وسيلة للتسجيل وللرجوع إلى ما سجل .

ويقول «جوفنز» : «إن اللغة في نشأتها الأولى كانت تستعمل في الغرض الأول على وجه الخصوص إن لم يكن استعمالها فيه وحده»[١].

ولم يرتض الأستاذ «يسبرسن» ما قاله «جوفنز» وناقشه مناقشة خرج منها بأن الباحث المنصف لا يستطيع أن يتابع رأي «جوفنز» باعتبار ما ذكره من أن الأغراض الثلاثة هو الغاية الوحيدة للغة لأن هذا لا يتحقق إلا عند المفكرين في أسمى لحظاتهم الأكاديمية[٢].

وجاء «فالينوفسكي» العالِم الأنثروبولوجي فخطا خطوات ملحوظة في تغيير النظر إلى اللغة ، فقد أدرك عندما كان يدرس بعض المجتمعات البدائية والفطرية أن دراسته لن تصح دون معرفة الوظيفة التي تقوم بها اللغة في المجتمع ، ومن هنا كانت نظريته المهمة في اللغة ... والتي أسهمت إلى حد كبير في تطور الفكر اللغوي .. وخلاصة نظريته : «إنَّ اللغة ليست مجرد وسيلة للتفاهم أو التوصيل ، بل هي حلقة في سلسلة النشاط الإنساني المنتظم ، وهي جزء من السلوك الإنساني ، وهي ضرب من العمل وليست أداة «عاكسة» للفكر»[٣].

---

(١) اللغة والمجتمع : محمد السعران ص ١١ ـ ط . دار المعارف ـ الإسكندرية . .

(٢) اللغة بين الفرد والمجتمع : عبد الرحمن محمد أيوب ص ٧ .

(٣) المصدر السابق ص ١٧ .

ولا شك أن الوظيفة الجَمالية الإمتاعية تتفاوت في القوة والضعف بحسب النماذج اللغوية التي تؤديها ، لأن الأساليب تتفاوت فيما بينها في هذا المجال .. ولجمال الأساليب أسس ومقومات إذا توافرت في الأسلوب عُدَّ من النماذج الأدبية الرفيعة وتناقلته الأجيال جيلاً بعد جيل .

وسنعرض في الفصل التالي للأسس والمقوِّمات التي تصقل العمل الأدبي وتُكسبه الأصالة والجدة الخالدة .

* * *

تبلورت هذه النظرية وتبنَّاها الكثيرون ، وذكروا أنماطًا من التعبير لم يكن المراد من اللغة فيها هو مجرد النقل ، ومن تلك الأنماط التي ذكروها :

١- المنولوج : ويُعرَّف بأنه حديث الإنسان لنفسه ، أو الكلام الانفرادي كالتفكير بصوت مسموع ، ومثله الكلمات التي تتردد على الأفواه عند فقد عزيز ، أو فراق صديق .

٢- السلوك الجَماعي : ويُطلق هذا النوع على ما يدور بين الجماعات في المواسم الدينية ـ مثلاً ـ كالحج والجُمَع والأعياد ، وكالأناشيد والأدعية .

٣- لغة التأدب : ويقصدون بها ما يجري بين الناس في مواقف معيَّنة مثل : شكرًا ، وآسف .

٤- عبارات التحية : ويقرب هذا النوع من سابقه مثل : « مرحبًا بك » ، « كيف حالك » .

لاحظ الباحثون أن هذه الأضرب من التعبير وما ماثلها ، ليس ملحوظًا فيها معنى النقل ، لأن المراد بها مجرد الترويح عن النفس أو العبادة ، أو إظهار الأسف أو السرور .

ولذلك استنتجوا أن اللغة قد تستعمل ـ أحيانًا ـ في أغراض غير النقل والتوصيل ومَن يُقصر اللغة على هذه الوظيفة فقد قلَّل من شأنها ، وبعد هذا الغرض لآراء المفكرين نوجز وظائف اللغة فيما يأتي :

أولاً : أن اللغة نشأت كضرورة من ضرورات المجتمع البَشري ، وكانت في عصورها الأولى ذات مظاهر بدائية كبدائية الإنسان نفسه ، ثم تطورت بتطور الحياة المستمر فأخذت تنمو حتى أصبحت ذات قواعد وأصول وفروع ، وأنها في نشأتها الأولى كانت مقصورة على التفاهم البسيط ونقل الأفكار من طرف إلى آخر ، بعيدة كل البعد عن استخدامها في أغراض جمالية .

ثانيًا : أن اللغة تؤدي دورًا هامًّا في صنع الحضارة الإنسانية وإليها يعزى كل تقدم حضاري باعتبارها وسيلة هامة فيه مباشرة أو غير مباشرة .

ثالثًا : وللغة ـ أيضًا ـ وظيفة نفعية ، وقد كانت ـ كذلك ـ في عصورها الأولى .. ويراد بنفعية اللغة أنها كانت أداة من أدوات العمل لها علاقاتها المباشرة بالمدلول[1] ، لا يلحظ منها معنى فني جمالي ، وعلماء النفس يسمون هذه الوظيفة : وظيفة اللغة الاجتماعية النفعية .. ويلخص «ألبرت» وظائف اللغة الاجتماعية فيما يأتي :

١- أنها تجعل للأفكار والمعارف الإنسانية قيمًا اجتماعية .

٢- أنها تحتفظ بالتراث والتقاليد الاجتماعية جيلاً بعد جيل .

٣- أنها تساعد الفرد على تكييف سلوكه وضبطه .

٤- أنها تزوِّد الفرد بأدوات التفكير[2].

رابعًا : وللغة ـ كذلك ـ وظيفة جَمالية ـ وقد وُجِدَت متأخرة عن الوظيفة النفعية العملية ، فجاءت الوظيفة الجَمالية نتيجة لرقي المجتمع وتطور الحياة .

ولعل أول مَن فرَّق بين وظيفة اللغة النفعية ووظيفتها الجَمالية الفنية هو «أرسطو» حين تصدَّى للرد على الذين يقولون : إنَّ القبيح يظل قبيحًا مهما كان التعبير عنه ، ويذكر أنَّ الأشياء القبيحة قد يُعبَّر عنها بما يستر قبحها ـ كما إذا أسمينا أرسطي «قاتل أمه» أو سميناه «المنتقم لأبيه»[3] .

ووظيفة اللغة الجَمالية هي الهدف من كل الفنون والآداب .. وغايتها الإمتاع ولكنها لا تخلو من النفع غالبًا ، لأن الفن الجدير بالتقدير هو ما كان للمجتمع وليس للفن ، وهي في «الفن للفن» وظيفة جَمالية إمتاعية فحسب ، أما في «الفن للمجتمع» فهي وظيفة جَمالية إمتاعية نفعية .

---

(١) النقد الأدبي الحديث : دكتور محمد غنيمي هلال ص ٣٦٩ .

(٢) اللغة العربية .. أصولها النفسية وطرق تدريسها : عبد العزيز عبد المجيد ص ١٨ .

(٣) النقد الأدبي الحديث : دكتور محمد غنيمي هلال ص ٢٥٨ . وأرسطي هو بطل مسرحية يونانية قديمة قام بقتل أمه لأنها قتلت أباه بعد عودته من طروادة .